ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

التجربة الثيولوجية في فلسفة برجسون: "حدودها وآفاقها"

The theological experience of Bergson's philosophy –its limits and horizons

معمر قادم

التخصص: فلسفة ، جامعة الشلف

تاريخ الإرسال: 2020-04-01	تاريخ القبول: 07/ 05/ 2020	تاريخ النشر: 30/ 06/ 2020

ملخص:

إن روح الأمل التي ميّزت فلسفة برجسون،ونزعتة التفاؤلية التي رسمت معالمها في تجربته الروحية المتكاملة ،ستفضي به إلى يقينية الحل الثيولوجي ،وإلى قدرته على استيعاب مختلف المشكلات و الأزمات التي لا زالت تهدّد الحياة الإنسانية في حاضرها ،فضلا عن مستقبلها الحضاري ،وتلك هي حدود التجربة الثيولوجية، التي انطلقت من السيكولوجيا إلى الانطولوجيا ومن ثمة ارتقت إلى الثيولوجيا ،ومن خلالها يطالعنا برجسون بتلك الآفاق الروحية الواعدة، والتي ستبقى إنسانية في طبيعتها ،وكونية في أهدافها وغاياتها .

الكلمات المفتاحية: الثيولوجيا ؛الدين ؛الأخلاق ؛التصوف ؛ الروحية؛ برجسون .

Summary :

The spirit of hope that characterized Bergson's philosophy, and the optimism that drew its features in his integrated spiritual experience, will lead him to the certainty of the theological solution, and to his ability to absorb the various problems and crises that still threaten human life in its present, as well as its civilized future, and those are the limits Theological experience, and through it Bergson examines us with these promising spiritual horizons, which will remain human in nature, and universal in their goals and objectives.

Keywords : **Theology , religion , ethics , mysticism , spiritual ,Bergson** .

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

مقدمة:

تأتي التجربة الثيولوجية عند برجسون تتويجا لمشروعه الروحي الذي أسّس له من البداية السيكولوجية التي تجلت في كتابه "محاولة في المعطيات المباشرة للوعي "،ومرورا بـ "التطور الخالق " الذي تمثّل فيه الأسس الحيوية للوجود و الحياة ،وصولا إلى مرحلة الاكتمال في " منبعا الأخلاق و الدين " الذي اتضحت فيه معالم الرؤية الروحية البرجسونية ،والتي يمكن التمييز فيها- إن جاز هذا التمييز- بين ثلاث تجارب تفضي كل واحدة منها إلى الأخرى كما لو كانت تجربة روحية واحدة ،ونعني بها أولا :التجربة الأخلاقية ،وثانيا التجربة الدينية ،وأخيرا التجربة الصوفية ،ولعل ما يُسوّغ لنا اعتبارها كتجربة ثيولوجية واحدة ،هو الحضور الإلهي المستمر فيها ،بحيث يمكن اعتبار أن الله هو المركز الذي منه تبتدئ التجربة ،وهو في الوقت نفسه النقطة التي تنتهي إليها ،وبناء على هذا سنحاول التركيز في بحثنا هذا على المسألة الجوهرية التي تستوعب مجمل التجربة الفلسفية البرجسونية من خلال معالجة وتحليل الإشكالية التالية : ما جوهر التجربة الثيولوجية عند برجسون ؟ و ما حدودها ؟وما هي آفاقها ؟

العرض:

1- التجربة الأخلاقية:

تتميّز التجربة الأخلاقية البرجسونية عن غيرها من التجارب الفلسفية التي عرفها الفكر الحديث و المعاصر باتجاهها إلى بحث المنابع الأولى للسلوك الأخلاقي ،ومن ثمة محاولة تتبعها في صيرورتها ورصد حركة تطورها الحيوي ،فلم يُعن برجسون ببحث المعايير و الأسس الأخلاقية ،ولا بتحديد ضوابط الخير أو الشر ،وإنما استهدف البحث في الأخلاق ذاتها ،وفي منابعها وأصولها الأولى ،وهو البحث الذي انتهى فيه برجسون مميزا بين نوعين من الأخلاق ،فالأول هو ما أسمّاه بالأخلاق الساكنة أو المغلقة ،أما الثاني فهو ما أسمّاه بالأخلاق الحركية أو المفتوحة ،ويبدو أن هذه الثنائية في الأخلاق تقابل ثنائية المجتمع التي تتحدّد عند برجسون بالمجتمع البدائي المغلق في مقابل المجتمع الإنساني المفتوح .

أ- الأخلاق الساكنة (المغلقة) :

يتأسّس التصور البرجسوني للأخلاق الساكنة على طبيعة النفس البشرية التي كانت يوما ما نفسا مغلقة ،وهي تلك النفس التي أفضت إلى المجتمعات البدائية المغلقة ،حيث قامت فيها الأخلاق الساكنة " مقام الغريزة في الحيوان ،ومثل هذه المجتمعات تقوم على الإلزام ،وهو يرجع إلى غريزة اجتماعية ،وظيفتها المحافظة على التماسك بين أفراد المجتمع "[1]،ومن هنا جاءت الأخلاقية فيها تعبيرا عن حاجة طبيعية فطرية في النفس التي كانت في ذاتها ساكنة ،تعوزها الحاجة الماسة إلى الارتباط بالآخر ،الذي تجد فيه العون الكامل على تحقيق مختلف حاجاتها التي كانت طبيعية بيولوجية ،خاصة

[1] محمد علي ،أبو ريان ،تاريخ الفكر الفلسفي ،ج4،دار المعرفة العلمية ،القاهرة ،(دط)،1996 ،ص 358.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

منها تحقيق المأمن و المأكل و المشرب ،وهي حاجات تتحقق بيسر في ظل الجماعة ،والتي تصبح بمثابة الإطار العام لما ينبغي أن يسير عليه الفرد ،شأنها في ذلك شأن مجتمع النمل أو النحل الذي تتآزر في الفرديات الواحدة ،و تذوب في الخلية الكلية ،كما لو لم يكن هناك إلاّ الكل الاجتماعي ،وكذلك كان الحال بالنسبة للمجتمعات البدائية الأولى .

إن حاجة الفرد الماسّة إلى المجتمع دفعته إلى الالتزام بكل ما هو اجتماعي ،والتضحية بكل ما هو فردي ،ولأنه " كان من الضروري للمجتمع أن يحافظ على بقاءه ،وأن يعمل على صيانة وحدته ،وتحقيق تماسكه ،فالفرد يجد نفسه إزاء ضغط اجتماعي ،إذ تلزمه الجماعة باحترام قواعد خاصة ،وتستعين في ذلك بمجموعة من الأدوات المادية و الأخلاقية ،التي تضمن بها تحقيق الإلزام ،فثمّة تنظيم اجتماعي يخضع فيه كل فرد لمقتضيات الحياة الجمعية ،ويتكون من ذلك العقل الجمعي "[2] وبذلك يكون العقل الفردي الطبيعي سابق على العقل الجمعي ،الذي يكون بدوره تعبيرا عن الغريزة الاجتماعية الكامنة في النفس المغلقة ،وعندئذ تكون الحاجة هي العامل الأبرز في المرور من العقل الفردي إلى العقل الاجتماعي ،لكنهما سيبقيان دوما في الإطار العام للعقل الطبيعي الذي يعبّر عن روح الحياة البدائية الأولى.

وإذا كان هذا العقل الجمعي وليد الميل الطبيعي للحياة الجمعية ،فإن الأخلاق المغلقة ستتضمن لا محالة " فكرة مجتمع لا يبتغي إلاّ البقاء ،فحركته الدائرية التي يسوق فيها الأفراد تجري في مكانها لا تحيد عنه ،فتحاكي ثبات الغريزة بوساطة العادة ،ولعل الشعور الذي يصاحبها...هو الشعور بنعمة العيش ودعة المجتمع "[3]،وبذلك كانت أخلاقا ساكنة جامدة، لا حركة فيها ،وليس لها في ذاتها أي قيمة غير كونها الأداة التي تكفل صيانة كيان المجتمع وحياته من مختلف الأخطار التي تحدق به كل حين ،وهي بالتالي إنما تحاكي الغريزة ،أو بعبارة أخرى تكون بمثابة " رجعة إلى حياة الغريزة ،تعدّ أدنى من مستوى العقل ،وفيها تكون مهمّة الضمير قاصرة على تحديد واجبات الفرد نحو المجتمع ،أو نحو غيره من أفراد الجماعة ،ويكون الضمير ثمرة من ثمرات الحياة الجمعية ،ووظيفته تنظيم التآزر الاجتماعي ،وتحقيق النظام الداخلي المطلوب في كل جماعة ،ويقوم هذا التنظيم على أساس ضغط الأنا الاجتماعية على الأنا الفردية ،خضوعا لغريزة الحياة ،وصيانة للتقاليد النافعة للمجتمع"[4].فلا تتجلى فالأخلاق المغلقة إلاّ نتاجا للدفع أو الإلزام الاجتماعي الذي يعانيه الأنا الفردي ،أو نتاجا لتلك الثنائية التي أفرزتها الحياة البيولوجية الأولى ،وتعبيرا عن الحاجة الفردية للاندماج الكلي في الحياة الجمعية ،تتحقق في ظلها حاجات الفرد بما هو كائن فردي لا تتجلى كينونته إلاّ بما هو كائن اجتماعي .

[2] محمد علي ،أبو ريان ،المرجع السابق ،ص 359.

[3] برجسون ،هنري ،منبعا الأخلاق و الدين ،ترجمة سامي الدروبي ،الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر ،القاهرة ،(د ط) 1971 ،ص 58.

[4] محمد علي ،أبو ريان ،المرجع السابق ،359.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

وبالعودة إلى المنبع الأصلي الذي انبثقت عنه الأخلاق الساكنة ،يمكن النظر إليها ميتافيزيقيا بما هي وليدة الدفعة الحيوية التي صدر عنها مجمل الوجود الإنساني والكوني على حدّ سواء ،ذلك أن دفعة التيار الحيوي قد تصطدم في أثناء حركة تطورها بنوع من المقاومة التي تبديها المادة ،فلا يتيسّر لذلك التيار الحيوي النفاذ بيسر ومرونة ،ويضطر إلى التكيف مع هذا الظرف الآني " ويخضع لها خضوعا جزئيا إلى أن يتيسّر له أن يرتفع من جديد إلى مستويات أعلى من التنظيم و التعقيد العضوي "[5]،ويكون خلق المجتمعات المغلقة قد تمّ في تلك الحالة الاضطرارية التي وهن فيها التيار ،والتي كانت بدورها الحاضنة التي ولدت من رحمها الأخلاق الساكنة •،من هنا يمكن القول أنها وليدة الدفعة الحيوية بما هي تجسيد للحركة الارتكاسية التي أُجبر فيها التيار الحيوي إلى نوع من التوقف و التراخي نتيجة اصطدامه بتيار المادة ،ولأنه لم يكن في وسعه الصعود أكثر ،فقد اضطر مؤقتا للتمدّد ،و كانت تلك هي حالة المجتمعات المغلقة على نفسها ،والتي لا تستطيع أن تنفتح إلاّ داخل ذاتها ،فتكون أخلاقها ساكنة لا تتعدى تلبية المطالب الذاتية المحضة ،أي تلك المطالب المتعلقة بالمجتمع الواحد ،كما لا تستطيع أن تتمثّل حياتها ،إلاّ في ذلك المناخ الاجتماعي المنغلق على ذاته .

ب- الأخلاق المفتوحة (الحركية):

تشير الأخلاق المفتوحة إلى ذلك النموذج من الأخلاق الذي ينفتح على الإنسانية جمعاء ،ولا يتحدّد بإطار زماني أو مكاني معيّن ،كما أنها ليست نتاج الضغط الاجتماعي المفروض ولا هي تعبير عن التحجّر ضمن قواعد وعادات اجتماعية مغلقة على ذاتها ،وإنما هي في جوهرها تصدر عن "نزوع سام ،تتمثّل فيه جاذبية القيم ،وفيه تعبير عن استجابة الفرد لنداء الحياة الصاعدة ،حيث نكون بصدد أخلاق إنسانية ،وليس الفارق بين الأخلاق الإنسانية المفتوحة وبين الأخلاق الاجتماعية ،مجرّد فارق في الدرجة ،بل هو فارق في الطبيعة ،فالأخلاق الاجتماعية تحصر مثلها الأعلى في تحقيق العدالة و التضامن الاجتماعي ،أما الأخلاق المفتوحة ،فتنزع إلى العمل لصالح الإنسانية "[6]،وليست مجرد لحظة تاريخية جاءت بعد أن أفَلَت لحظة الأخلاق المغلقة ،ولا هي تعبيرا عن انتقال المجتمعات البشرية من لحظة الانغلاق إلى لحظة الانفتاح ،ولو كان الاختلاف بينهما في الدرجة ،لأمكن ذلك ،لكن الاختلاف إنما هو اختلاف في الطبيعة ،فلا يمكن أن ننتقل من المغلق إلى المفتوح ،لأن كل نموذج قائم بذاته وفي ذاته ،فإذا كانت الأخلاق المغلقة بطبيعتها لا تنتشر " إلاّ عن الدفع من الخلف ،فالأخلاق المفتوحة لا تنتشر إلاّ عن طريق الجذب للأمام ...بالقدوة و المثال وانفعال النفس العميق ،الذي ينحو نحو الخلق و

[5] صادق جلال ،العظم ،دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة ،جداول للنشر و التوزيع ،بيروت ط1 ،2012. ص 150.

• تتميز الدفعة الحيوية بقوتها وشدة تيارها ،إلاّ أنها قد تصاب بنوع من التراخي و الوهن ،فتضطر إلى تكرار نفسها في أفراد متشابهين ،ينتمون إلى نوع واحد ،بدلا من أن يستمر في خلق أجناس جديدة ،فتتجه طاقات التيار الحي في النقاط التي توقف عندها ،نحو المحافظة على الأنواع و الأفراد التي نتجت عن ذلك التوقف ،وتتحول طاقته الباقية إلى حركة دائرية مغلقة ،ضمن نطاق النوع الواحد أو المجتمع الواحد (أنظر:صادق جلال العظم ،المرجع السابق ،ص 174.)

[6] عبده ،مصطفى ،فلسفة الأخلاق ،مكتبة مدبولي ،القاهرة ،ط1 ،1999 ،ص ص 41-42.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

الإبداع ،من خلال انفعالات حيّة متصلة بالسورة الحيوية "[7] التي تكون هي المنبع المعين الذي انبثقت عنه هذه الأخلاق التي تستهدف بقيمها الإنسانية جمعاء .

إن روحية الأخلاق المفتوحة وارتباطها بأسمى المثل الإنسانية ،تجعل منها أخلاقا تتسامى على الأخلاق المغلقة ،فلا تقف عند حدود الإلزام والضغط الاجتماعي،ولا تسكن لمجرد الحاجات البيولوجية ،بل تتخطى ذلك كله إلى نوع من الحياة الروحية الخالصة ،وتقترب من " حدّ نظري نتصور فيه أن حياة الإنسان تسير وفق مبادئ المحبّة الخالصة و الانجذاب المحض ،وأقرب مثال على هذا هو حياة القديسين "[8]،التي تتجلى كلحظة نظرية نتجاوز فيها حدود الدفع من الخلف ،إلى السير بقوة الانجذاب نحو إلى الأمام ،حتى ندرك تلك النماذج الخالدة التي نحذوا حذوها و نهتدي بهديها أو نسير على نورها ،والتي هي بحسب برجسون ،نماذج عليا للصفاء و التسامي الذي عرفته الإنسانية .

بيد أن ذلك لا يعني تحدّدها بحدود تلك اللحظة النظرية ،لأنها في الجوهر تبرز "كحقائق واقعة وموجودة فعلا في تاريخ الإنسانية ،لا كحدود مثالية نقترب منها ،مع العلم أن الأخلاق المركزية بصورتها الخالصة تتجسّد في شخص "يسوع المسيح "وحياته وانفعاليته ...فالأخلاق الحركية على ذلك، تتجلى في حياة هؤلاء الأبطال و القديسين و المتصوّفين وتعاليمهم، التي تشكّل مضمون الأخلاق الحركية ومحتوياتها، وتُشكّل حياتهم وشخصياتهم، القوى الفعالة التي تجذبنا إلى تلك المحتويات "[9].

إن الانفتاح و الحركية هما أسمى ما يميز التجربة الأخلاقية عند برجسون ،ومن خلالهما يمكن الولوج إلى عالم الروح ،حيث يمتزج الأخلاقي بالديني و الصوفي، في بوتقة واحدة هي دائرة القيم الإنسانية السامية، التي نتمثّلها بوضوح في حياة القديسين و المتصوفة ،على أن برجسون لا يعني هنا غير التجربة الصوفية المسيحية ،دون غيرها من التجارب الصوفية الأخرى التي عرفتها الإنسانية ،لأن هذه الأخيرة تبقى – حسبه –دوما دون مستوى النفحة الروحية الكاملة التي يطالعنا بها تاريخ التصوف المسيحي ، لقد جعل برجسون الأخلاق الحركية ،أخلاقا صوفية مسيحية بامتياز ،فلا تتجلى في أسمى صورها إلاّ من خلال " التصوف المسيحي ،لأننا عندما ننظر إلى بقية الأديان ،وبقية الحركات الصوفية في العالم من زاوية الدين الحركي الكامل ،تبدو لنا ناقصة مهما بلغت من التسامي و الصفاء في تعاليمها ...وأن محتوى الأخلاق المفتوحة بمعناها الكامل، تتجلى في تعاليم الإنجيل "[10]،ومن ثمة ستحيلنا التجربة الأخلاقية عند برجسون ،إلى الانفتاح بالضرورة على التجربة الدينية من خلال الدين الحركي ،وعلى التجربة الصوفية من خلال التصوف المسيحي ،وعندئذ فقط ، يمكن الحديث عن أخلاق روحية في طبيعتها ،إنسانية في كليتها وشموليتها ،كونية في أبعادها و آفاقها ،ولذلك سيبقى

[7] عبده ،مصطفى ،المرجع السابق ،ص 42.

[8] مروان علي حسين ،أمين ،فلسفة الأخلاق عند برجسون ،مجلة كلية الدراسات الإنسانية ،جامعة الكوفة ،بغداد ،العدد 07 ،2017 ،ص 213 .

[9] المرجع نفسه ،ص 214.

[10] المرجع نفسه والمكان.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

العظماء من القديسين و المتصوفة على الدوام ،بمثابة الشعلة المنيرة لدروب الإنسانية المعتمة ،وهي في الوقت ذاته ستبقى المنبع المعين الذي تنهل منه روحها الأخلاقي الأسمى .

2- التجربة الدينية:

تمثل التجربة الدينية العمق الحيوي الأكثر بروزا في تاريخ الإنسانية ،هذه الأخيرة ، لم تستغن يوما عن الدين ،" فلقد نرى في السابق ،أو في الحاضر ،مجتمعات إنسانية لا حظّ لها من علم ،أو فن ،أو فلسفة ،ولكننا لا نعرف مجتمعا لا دين له "[11] ،فالدين إذن ،متجذّر في عمق التجربة الإنسانية ذاتها ،ولهذا كان بحث برجسون قد اتجه في كتابه "منبعا الأخلاق و الدين " إلى الأصول و المنابع التي يكون الدين نتيجة لها ،ومن هنا جاء هذا البحث، في السياق ذاته الذي بحث فيه التجربة الأخلاقية ،حيث رأى في الدين الثنائية نفسها التي وجدها في الأخلاق ،فاتجه إلى التمييز بين الدين الساكن وبين الدين المتحرك ،وبقي الأول دوما – حسبه - سمة المجتمعات المغلقة التي دانت بالأخلاق الساكنة ،أما الثاني فهو سمة المجتمعات المفتوحة التي دانت بالأخلاق الحركية .

أ- الدين الساكن:

تشير التجربة الدينية–الدين الساكن– في مضمونها إلى ذلك المحتوى الساكن ،الذي يشمل مجمل " التشريعات و التقاليد والتعاليم و الطقوس و التنظيمات و الخرافات و الأساطير التي تدخل في جميع الديانات المعروفة ،وهذه المظاهر الخارجية هي التي تعطي للدين طابعه السكوني "[12]، فضلا عن كونها تحجز الإنسان عن الولوج إلى عمق التجربة الروحية ،وتُبقي عليه أسيرا داخل أسوار الخرافة و الأسطورة .

وعلى هذا الأساس يحدد برجسون ثلاثة عوامل أساسية يمكن اعتمادها في تفسير نشأة الدين الساكن وظهوره على مسرح التاريخ البشري ،وهي الغريزة ،والعقل ،وأخير الملكة الخرافية التي تميّز بها الإنسان ،والتي كانت في الأصل وليدة العقل و الغريزة معا ،وهي مع ذلك ،عوامل تداخلت فيما بينها ،و امتزجت لتتشكّل على أساسها التجربة الدينية السكونية .

أما الغريزة ،فيمكن اعتبارها أحد أبرز العوامل المساهمة في بروز معالم التجربة الدينية الساكنة ،ويعزى ذلك إلى طبيعة الغريزة ذاتها ،وإلى وظيفتها الحيوية ،حيث عملت دوما على" المحافظة على الحياة من خلال العمل على صيانة وتماسك المجتمعات و تآزرها ،ولذلك تتجلّى الغريزة أكثر ما تتجلّى في المجتمعات الساكنة سكونا تاما ،بدلا من أن تتجلى في الوثبة الحيوية ،كما تعبّر عن نفسها في أبطال الإنسانية "[13] ومن هنا اتفق للدين الساكن ،أن ينبثق في المجتمعات الساكنة ذاتها ،والتي كانت

[11] برجسون ،هنري ،المصدر السابق ،ص 113.

[12] صادق جلال ،العظم ،المرجع السابق ،ص ص 161-162.

[13] المرجع نفسه ،ص ص 162-163.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

بطبيعتها مجتمعات غريزية ،توقفت حركتها على مجرّد الاستجابة للحاجات الطبيعية و الآنية للوجود الإنساني ،فكان بالتالي ،الجمود و السكون هما سِمتا تلك الديانة التي عرفها الإنسان الأول .

وإذا كانت الغريزة قد عملت على ديمومة الكيان الاجتماعي ،وعلى صيانته و ضمان توازنه ،فإن العقل على النقيض من ذلك ،عمل باستمرار على تهديد الكيان الاجتماعي ،وعلى زعزعة أركان نظامه الطبيعي ،ولأن العقل ملكة مفعمة بالفضول وحب الاستطلاع ،والميل إلى الابتكار و الاختراع والمجازفة ،فإن ذلك تحديدا ما عرّض النظام " الاجتماعي للخطر ،لِما في هذه الميول من نزعات فردية لا تنسجم مع مصالح المجتمع الحيوية "[14]،خاصة عندما اتّجه إلى إنشاء تصورات وأفكار من شأنها أن تتصادم وطبيعة الإنسان الحيوية،ذلك أن العقل غالبا ما كان وراء بروز أفكار تشكل خطرا على تلك الحياة ذاتها ،ولا أدلّ على ذلك من فكرة الموت ،التي كبحت جماح الطبيعة الحيوية في الإنسان ،وقضت على آمالها وطموحاتها اللانهائية ، ومن هنا سيكون ردّ الفعل الذي تبديه الطبيعة ضد العقل ،ويكون الدين الساكن هو التجلي الواضح لذلك الردّ الذي تبديه الطبيعة .

أما الملكة الخرافية• فهي العامل الأكثر حسما في بروز الدين الساكن ،لأنها " المسؤولة عن الدين الساكن وما يتضمنه من معتقدات غيبية أو أساطير وخرافات ،حيث يخترع الإنسان بفضل هذه الملكة ،تلك الشخصيات الخرافية و الأرواح و الآلهة ،ويخلع عليها صورا متباينة و أشكالا متعددة ،إلاّ أن برجسون لا يكتفي بهذا التفسير للدين الساكن ،بل يريد تفسيرا أعمق ،يبيّن لنا لماذا توجد مثل هذه الملكة في الإنسان أصلا ...حيث يصل إلى أن هذه الملكة الخرافية تسدُّ حاجة حيوية لدى الإنسان ،عن طريق ما تنتجه من معتقدات ،يتألف منها الدين الساكن "[15]، ويكون في تلك التصورات التي ولدت من رحم الملكة الخرافية ،نوعا من السكينة التي تهدأ من روع الإنسان الذي استبدت به الأفكار التي أنتجها العقل في مرحلة من مراحل الحياة .

وهكذا يبدو أن العلاقة بين الدين الساكن وبين الملكة الخرافية ،هي علاقة عليّة ،حيث يبدو من جهة، أن هذه الأخيرة هي التي تفسّر وجود الدين الساكن باعتبارها علّة وجوده ،ويبدو من جهة ثانية، أن الدين الساكن ذاته، يمكن أن يكون العلّة المباشرة لانبثاق الملكة الخرافية لدى الإنسان،وتكون الحاجة الحيوية إلى الدين الساكن هي التي أفضت إلى وجود مثل هذه الملكة الخرافية ،يقول برجسون :"أما الدين فهو العلة الوحيدة في وجود الملكة الخرافية ...وهي للدين نتيجة لا علّة،

[14] صادق جلال ،العظم ،المرجع السابق ،ص 163.

• تقوم الملكة الخرافية عند برجسون بوظيفتين أساسيتين :أولا تشخص الأشياء و الأحداث وتنسب إليها أرواحا تقطن فيها ،وثانيا تنسج من هذه المعطيات الخرافية الميثولوجيا الدينية المعقّدة ،حيث تتحول الأرواح البسيطة التي كانت موجودة في الأشياء إلى آلهة ذات شخصيات مستقلة و محدّدة (أنظر: صادق جلال ،العظم ،المرجع السابق ،ص 163.)

[15] صادق جلال ،العظم ،المرجع السابق ،ص 193.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

فلا بدّ أن حاجة ما، وقد تكون فردية، إلاّ أنها على كل حال، اجتماعية، قد اقتضت من الفكر هذا النوع من النشاط "[16].

إن الدين الساكن ،جاء تعبيرا عن الحالة الطبيعية الفطرية في الإنسان ،وهي حالة عبّرت عن ركون الإنسان إلى نوع من الآلية و السكون الاجتماعي ،شأنه في ذلك شأن الحالة التي عرفتها مجتمعات حيوانية كثيرة ، كالنمل مثلا، أو النحل ،ولذلك لم يكن الدين الساكن وليد العقل ،بقدر ما هو نتاج التعلق بالحياة الغريزية ،تلك الحياة التي جعلته يركن إلى نوع من الدعة و السكون ،ونتيجة لذلك ،كان هذا الدين بمثابة " ردّ فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة عن نفسها "[17]،ضدّ كل ما من شأنه أن يعيق سيرها أو يثبّط حيويتها ،وتكون الطقوس الدينية- في الدين الساكن - المختلفة ،أبرز صور تلك المقاومة التي تبديها الطبيعة حفاظا على حيويتها ،واستمرارا لكينونتها الطبيعية .

وعلى هذا الأساس يتأكد لدى برجسون أن للدين الساكن وظيفتين أساسيتين، أما الأولى فهي تتجلى " كردّ فعل ضد الأفراد الذين يتهاونون في واجباتهم الإنسانية بسبب نزعاتهم الفردية ،وبما أن المجتمعات الدينية تبرز كرد فعل دفاعي ضدّ ما يجيء مع استعمال العقل من أثر مفكك لتماسك المجتمع ،فإن وظيفة الدين هي إبطال مفعول التأثيرات الخطرة على حياة المجتمع ،والناتجة عن طبيعة العقل واتجاهاته الفطرية " [18]، ومن هنا تتجلى تلك الثنائية التي تطرح جدل العقل و الغريزة ،وصراعهما الأبدي ،بيد أننا في هذه الحالة ،سنكون أمام صراع ينتصر فيه الدين للغريزة و الفطرة على حساب العقل ،يقول برجسون :" إن الدين من هذه الوجهة الأولى ،هو ردّ فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة ،قوة العقل الهدامة "[19].

وفي السياق ذاته ،تتجلى الوظيفة الثانية من خلال تلك المحاولات التي يقوم بها الدين سعيا " لإبطال مفعول بعض الأفكار و التصورات التي يشكّلها العقل استنادا على تجارب الإنسان وخبراته ،وذلك لأنها تؤثر تأثيرا سلبيا في قدرته على تحمّل أعباء الحياة و التشبث بها ،لأنها تُضعف من إخلاصه للجماعة ومن كدّه الدائم في سبيلها ،ولذلك يعتبر برجسون أن الدين السكوني رد فعل تقاوم به الغريزة عن طريق الملكة الخرافية قوة العقل " [20] التي أنتج نشاطها الدائم جملة من الأفكار التي تضرب الحياة في صميمها ،كما تجعل الإنسان ييأس من التعلّق بها ،بل ويمكنه نتيجة لتلك الأفكار أن يبدي ردود أفعال ضد الطبيعة ذاتها ،ومن أشدّ تلك الأفكار وطأة و خطورة على الحياة ،فكرة الموت وحتميته ،ومصير الإنسان ،فهذه الأفكار – بحسب برجسون – من شأنها أن ترهق الإنسان وتثقل

[16] برجسون ،هنري ،المصدر السابق ،ص 120.

[17] ابرهيم مصطفى ،ابرهيم ، نقد المذاهب المعاصرة ،دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ،(د ط) 2015 ، ص 47.

[18] قيس ،أحمد ،فلسفة الدين عند برجسون ،مجلة قضايا إسلامية معاصرة ،مركز دراسات فلسفة الدين ،بغداد ،ع 48/47، 2011، ص 224.

[19] برجسون ،هنري ،المصدر السابق ،ص 134.

[20] قيس ،أحمد المرجع السابق ،ص 224.

المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

كاهله ،كما من شأنها أن تثبّط من عزيمته ،وتضعف من شدّة تمسّكه بالحياة ،" ولتبطل الطبيعة المفعول السلبي لهذه الاستنتاجات العقلية ،يولد في الإنسان فكرة البقاء بعد الموت "[21] التي عبّر عنها الدين الساكن من خلال طقوس و معتقدات متنوعة ،وجد فيها الإنسان العزاء والسلوى للتغلب على قوى العقل التي كادت أن تميت كل ما هو حيوي في الإنسان ،وهكذا يضمن الدين الساكن باختراعه لمحتوى فكرة البقاء بعد الموت ،" إعادة التوازن لصالح الطبيعة "[22] ولصالح بناء توازن جديد بين ما هو نتاج للعقل، و بين ما هو نتاج للوظيفة المخترعة للأساطير ،أي للغريزة التي تأبى إلا الحياة ،وينتصر الدين بذلك -مرّة أخرى – للغريزة على حساب العقل .

إن الدين الساكن –على آليته وسكونه – ساهم في تحقيق التوازن النفسي للإنسان ،كما أنقذه من " من براثن تلك الصورة المؤلمة للكون ،حين قدّم له صورة أخرى ،تقول له أن العالم المحيط به يحسب له حسابا ،ويهتم بآماله ومخاوفه ومُثله ،وتبثّ فيه روح الإقدام و العزم ،وتخفف عنه صدمة الموت ،بتصويرها كمجرّد انتقال من حياة إلى أخرى ،فتدخل على قلبه شيئا من الطمأنينة"[23] التي فقدها نتيجة التصورات العقلية السابقة، والتي كادت أن تشلّ قوى الفرد ،وتحل تماسك المجتمع ،لولا أن الطبيعة تدخلت -من خلال الدين الساكن – بقواها المتعدّدة ،وفتحت لها آفاقا حيوية جديدة ،تمكنت بها من العودة و الانبعاث من جديد .

ب – الدين المفتوح (الحركي) :

توحي التجربة الدينية – في الدين الحركي – أن هناك " مجال في كل واحد منا للتعبير عن عاطفة دينية فردية ،تتفاوت في عمقها و إبداعها من شخص إلى آخر ،ولذلك يعتبر برجسون أن الجانب الحركي في الدين هو قدرته على إثارة هذا النوع من العواطف الدينية العميقة في الإنسان"[24]،ومن هنا ،يميّز برجسون بين الدين باعتباره مجموعة من المعتقدات و الطقوس و التعاليم الساكنة المتحجرة ،وهذا هو الدين الساكن،وبين الدين باعتباره تجربة فردية روحية ،وهذا هو الدين الحركي .

وبهذا تُختزل في الدين المفتوح المسافات التي تفصل بين الإنسان و بين الإنسانية ،كما تزول الهوة السحيقة التي كانت تسد الأفق الروحي أمامه ،لينفتح المجال أمام تلك التجربة المتميّزة ،فتتدفّق من خلالها أسمى المعاني الروحية ،التي تتيح للإنسان الولوج إلى عالم المحبة و الإخاء ،وليس المحبة التي تشمل الإنسانية وحسب ،بل هي تجربة روحية ،تفيض منها المحبة لتشمل الخليقة و الوجود بأسره ،ومن هنا يمكن النفاذ إلى صميم الدين المتحرك ،فندركه في جوهره ،كما لو كان تعبيرا عن التوق الإنساني إلى ما يسمو عليه ،توقه الدائم إلى الله بما هو المنبع الأصيل للمحبة ،وهي بدورها عنوان

[21] صادق جلال ،العظم ،المرجع السابق ،ص 165.

[22] بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 1984، ص 379.

[23] صادق جلال، العظم، المرجع السابق، ص 171.

[24] المرجع نفسه ،ص 161-162 .

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

الدين الحركي يقول برجسون " عن طريق الله ،يأمر الدين بمحبة الإنسان للنوع الإنساني"[25] ،وبهذا سيتأكد لدينا أن الدين الحركي ،هو في ذاته تعبيرا عن العمق الروحي للتجربة الثيولوجية في فكر برجسون .

إن الدين المفتوح هو تجربة روحية ، يعيشها الإنسان كتجربة فردية ،تختلف عن تلك التجربة السكونية التي تعرفها روح الجموع -في الدين الساكن – لكنها ،وإن كانت فردية، فإنها ترتقي بالإنسان إلى تمثّل الإنسانية برمّتها في جوانيته ،وفي روحه التي تشعّ محبّة وإخاء يسع الكون في كلّيته ،ويمكن تفسير تلك التجربة ميتافيزيقيا، بردّها إلى تلك الوثبة الحيوية التي خرج منها كل ما هو حيوي ،بيد أن الانبثاق هنا ،لن يكون تعبيرا عن وهن أو تراخي في التيار الحيوي ،كما هو الشأن في انبثاق الدين الساكن ،وإنما يتعلّق بطاقة حيوية خلاقة ،جرت في تيار الحياة الصاعدة ،و تمثّلت على المستوى الروحي كانفعال " خلاّق أو عاطفة خلاّقة تطغى على كيان القديس أو المتصوف ،ولذلك فعواطفنا و مشاعرنا هي التي تجعلنا نستجيب لنداء البطل ،وهي التي تجذبنا نحو القديس لنقتدي به ونحاكيه ،لأن نداءهم يحرك فينا انفعالا عميقا ،ويولّد في داخلنا حبّا وولاء يتجاوزان حدود المجتمع المغلق ،ويتجهان نحو الإنسانية "[26] .

وإذا كان الدين الحركي في صميمه تجربة روحية ،تعبّر عن أسمى معاني التجربة الثيولوجية ،وعن حقيقتها المتعالية ،فسيكون منبعها " الحدس لا الغريزة ،وغايتها الاتصال بالله، لا التمسك بالمجتمع ،ووسيلته الانفصال عن كل شيء ،لا التعلّق بالحياة ،وهو يحقق الطمأنينة و السكينة بشكل أرقى ،ذلك ما نجده لدى كبار الصوفية الذين يُعبّرون عن تماس أو احتكاك مباشر بالجهد الخالق الذي يكمن وراء الحياة ،وهذا الجهد هو من الله "[27] ،عندئذ تتبدى معالم الحضور الإلهي من خلال التجربة الدينية ،ويكون الإلهي في صميم الديني ،إن لم يكن هو الديني ذاته ،على أن الديني هنا ،هو الدين الحركي، لا الدين الساكن ،ولعل هذا ما عبّر عنه برجسون بالقول أن: " الدين الحركي إنما يظهر عند بعض الأفراد ،وهؤلاء هم المتصوفة ،وأسمى مظاهر هذا الدين هو التصوف ،لأن الله محبّة ،وهو موضوع محبة ،وهذا ما يجيء به التصوف "[28] ،فلا يميّز برجسون بين الدين الحركي وبين التصوف ،وإن كان يقتصر في رؤيته للتصوف على نموذج الصوفية المسيحية ،باعتبارها التجربة الوحيدة التي اكتمل فيها التماس بين الناسوت و اللاهوت ،كما تحقق فيها ذلك التوافق " الجزئي بالجهد الخالق ،الذي يصدر عن الله ،إن لم يكن هو الله "[29] ذاته ،حين يتجلى في عمق التجربة الصوفية

[25] برجسون ،هنري ،المصدر السابق ،ص 39.
[26] مروان علي حسين ،أمين ،المرجع السابق ،ص 215.
[27] محمد علي ،أبو ريان ،المرجع السابق ،ص ص 362-363.
[28] Bergson ,Henri ,les deux sources de la morale et de la religion ,p u f ,58e edition,1948,p267.
[29] Bergson ,Henri ,op ,cit ,p 233.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

وعلى هذا الأساس يتقرر لدى برجسون أن الصوفية الكاملة هي صوفية كبار المتصوفة المسيحيين ،الذين يكشف لهم الحدس الصوفي ماهية الحقائق المطلقة بصورة مباشرة ، ويتيح لهم تجاوز القشرة السطحية ،وبالتالي الولوج إلى الباطن الروحي،حيث تنبع الحقائق ،وتشعّ على الوجود الإنساني ،والوجود الكوني على حدّ سواء ،ومن هنا ،تتضمن فكرة الدين المفتوح ،حركة روحية، تنفتح فيها النفس على الحياة الكونية ،ولا " تعترف بحدود عقدية ضيّقة تؤمن بها طائفة على حساب طائفة ،أو مذهب ديني ،أو فرقة معيّنة على حساب أخرى ، ولذلك وجدنا برجسون وثب بنا في نقلة نوعية من المنغلق إلى المنفتح ،حيث امتزجت الأخلاق بالدين ،إنه نداء تنجذب بمنحاه الإنسانية "[30] في تجربة روحية متسامية يكون الانفعال و الجذب أساسها وجوهر حركتها ،لأن النفس عندما " تهتزّ في أعماقها ،تتوقف عن الاستجابة لناموس الحياة ،وتقف مستطلعة ،كأن صوتا يدعوها ،ثم تستسلم لهذا الصوت ،بعد أن تدرك إدراكا مباشرا القوة التي تحركها عبر رؤيا رمزية ،فيتدفق عليها سيل من الفرح و السعادة ،لأنها تدرك وجود الله معها ،فقد زالت المشاكل الدنيوية ،وانقشعت الظلمات ،إنه الإلهام الربّاني "[31]،الذي يتجلى لتلك النفوس التي انفتحت بكليتها، واستعدّت للارتقاء إلى العالم الروحي الجديد ،وتلك هي نفوس الأبطال و القديسين الذي تمكّنوا من التحرّر من أسر المادة ،ومن قوانين الطبيعة وأحكام العرف و التقاليد الاجتماعية الساكنة المغلقة ،فلما كانوا كذلك ،انفتحت قلوبهم " لِمدد إلهي عارم ،استولى على ذواتهم ...ولم يكن ذلك نشوة أو انجذابا فحسب ،بل هو مجرى دافق هابط ،يريد أن يمتدّ من خلال هؤلاء الممتازين إلى نفوس الأفراد الآخرين ،فيدفعهم إلى حب الإنسانية "[32].

ومن هنا ،لم تكن القيم الروحية و الدينية التي بلغوها إلاّ تعبيرا عن تجارب روحية فردية خالصة ،ولكنها في الوقت ذاته كانت قيما كونية تقتدي بها الإنسانية برمتها،ولأن الحمولة الروحية التي تتضمنها ،والطاقة الانفعالية التي تحويها ،لا يمكن أن تبقى كامنة في الفرد ،ولا هو في مقدوره أن يستوعبها لوحده ،فإن النداء الروحي يظهر في الأفق ،ليجذب إليه ،ليس الفرد فحسب ،بل الإنسانية جمعاء .

وتتّسم القيم التي يحملها الدين الحركي ،ببعدها الإنساني ،فهي قيم إنسانية تصدر عن انفعال و جذب وتطلع ،يستوعب الخليقة بأسرها ،ولمّا كانت تلك التجربة الدينية – الدين الحركي - هي " الطريق الأوحد لحلّ مشكلة الله ،حلاّ تجريبيا ،فلن تستطيع الفلسفة ،ولا الدين الساكن ، أن تعطينا معرفة يقينية عن الإلوهية ،بقدر ما تمدّنا به عنها التجربة الصوفية –الدين المتحرك – الحقّة ، التي هي مشاهدة عيانية ،ورصد روحاني ،ومثول في مواجهة الحضرة الإلهية ...ولهذا يرفض برجسون جميع

[30] طيرشي ،كمال ،الفلسفة الروحانية عند هنري برجسون ،مجلة تبيين للدراسات الفكرية و الثقافية ،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ،الدوحة ،العدد 13 ،2015 ،ص 182.

[31] ابرهيم مصطفى ،ابرهيم ،المرجع السابق ،ص 46 .

[32] محمد علي ،أبو ريان ،المرجع السابق ، ص 361.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

الأدلة على إثبات وجود الله ،ويستبقي دليل التجربة الصوفية –المسيحية –الذي نكون عن طريقه في حضرة الألوهية مباشرة "[33] ،وهذا هو جوهر الدين المفتوح وغايته في الوقت ذاته ،أي أنه انفتاح على الحضرة الإلهية ،الأمر الذي من شأنه أن يجعل التجربة الدينية -الدين الحركي - في عمق التجربة الصوفية ،وتكون المسيحية هي أنموذج الكمال الصوفي الذي عرفته الإنسانية ،ويبدو أن هذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن طبيعة التجربة الصوفية وعلاقتها بالتجربة الدينية ،وكذا التساؤل عن خصوصياتها ومميزاتها ،ومن ثم تتبع تجلياتها و غاياتها،وأثرها على مستوى الحياة الإنسانية عامة .

ج- التجربة الصوفية :

تمثل التجربة الصوفية صميم التجربة الثيولوجية ،وفيها يكتمل النموذج الأخلاقي و الديني ،لذلك جاءت تجربة حافلة بالقيمة والمعنى ،مستهدفة السمو بالإنسانية جمعاء ،إلى مستوى المعاينة المباشرة للحضرة الإلهية ،ولأن جل الفلسفات السابقة لم تستطع حل مشكلة وجود الله ،واكتفت بالمقاربات العقلية و النظرية ،فإن برجسون حاول – من خلال التجربة الصوفية - نقل المشكلة إلى الفضاء التجريبي ،باعتباره الفضاء الوحيد الذي من شأنه أن يضمن الحل الأمثل لتلك المشكلة الثيولوجية ،لكن ،على أسس تجريبية ،مغايرة للأسس العلمية المعهودة في علوم الطبيعة ،والتي غالبا ما بقيت نتائجها تتأرجح بين النسبية و الاحتمال ،في حين أن التجربة الصوفية ،تقرّر أننا نشارك مشاركة لاشعورية في موجود أعظم منّا ،نستطيع أن نطلق عليه اسم الله ،ثم إنها تدخلنا بالفعل في عالم تتصل فيه الأرواح وتتفاعل لا من خارج ،أو بواسطة الألفاظ ،بل من داخل ،ودون وساطة ،لأنها شعور قوي غير منازع ،بحضور إلهي يهبُنا ما لم تكن لتوفّره لنا جهودنا واستدلالاتنا العقلية والتجريبية ،ويفضي بنا لا محالة إلى المطلق والنهائي ،حيث تتجلى أنوار الحقيقة الإلهية على الحياة الإنسانية ،ومن هنا كان الحدس الصوفي هو أداة التجربة الروحية ، والإلهام هو نورها الذي تهتدي به ،فتنير الدروب المعتمة ،ليس أمام الإنسان الفرد وحسب ،بل أمام الإنسانية جمعاء .

وعلى هذا ،يتأكد لدى برجسون ،أن التجربة الروحية الحية هي تجربة التصوف الكامل ،وقد تمثلها في تصوف كبار المسيحيين ،وإن كان تصوفهم ناقصا ،إذا ما قارنّاه بالصورة الكاملة التي كان عليها المسيح ،إلاّ أنهم مع ذلك بلغوا من الكمال ما لم يبلغه غيرهم ،ووصلوا من الوحدة و الوصال بالله ما لم يصله كل المتصوفة الذين عرفهم التاريخ ،ومن هنا ،كان التصوف المسيحي هو أكمل النماذج الروحية ،وهو الأجدر " لتناول مسألة وجود الله وطبيعته ،على نحو تجريبي "[34] ،وعندئذ ستكون مسألة الوجود الإلهي ،في صميم التجربة الثيولوجية ،وسيكون التصوف المسيحي ،هو المنفذ الوحيد للولوج إلى عمق المسألة و معايشتها تجريبيا ،وروحيا من خلال النماذج الخالدة في التاريخ ،اهتداء وقدوة ،أو انجذابا ونداء .

[33] محمد علي ،أبو ريان ،المرجع السابق ،ص 363.

[34] كرم ،يوسف ،تاريخ الفلسفة الحديثة ،كلمات عربية للترجمة و النشر ،القاهرة ،(دط) ،2012 ،ص 448.

المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

إن التجربة الصوفية هي تجربة التعالي الروحي ،باتجاه مبدأ عال متسام،تُختزل فيه تجربة الوجود إلى ما هو معطى ،لأن المتعالي " لا يمكن أن يكون مستنتجا أو مبنيا ،كما أن النفاذ إليه عبر التجربة الصوفية ،يكون نفاذا عرضيا ،وكأن في الاكتشاف البرجسوني للتعالي ،ما يقارب الانكشاف أو الوحي ،بيد أن التجربة الصوفية إذا لم تكن غير تجربة متلقاة ،فإنها يجب أن ترضي بعض الاقتضاءات الفلسفية ،لأنها لن تكون مقنعة إلاّ إذا رأى الفيلسوف عن طريق آخر كطريق التجربة الحسية ،أو البرهان القائم عليها ،أن من المعقول أن يكون ثمة تجربة ممتازة يتصل فيها الإنسان بمبدأ عال "[35] ،وهذا ما حاول برجسون إضفاءه على التجربة الصوفية ،حيث أراد لها أن تكون قادرة على احتواء مجمل القيم الإنسانية السامية ،من خلال ربطها بمبدأ عال تتوق الإنسانية جمعاء إلى التمثّل به ،ويكون ذلك عبر القدوة و الاهتداء بسُنن القديسين و الأبطال، الذين عرفتهم البشرية عبر تاريخها الطويل .

إذن ،سيكون للتجربة الصوفية وجهها الأول وهو المتعالي البعيد ، ووجهها الثاني وهو المتصوفة العظماء ،الذين هم أقرب إلينا من خلال نداءاتهم الخالدة التي تأتينا من عمق التاريخ ،ونحن إذا تمثّلناها عمليا ،تمكّنا من اختزال المسافات البعيدة التي كانت تفصلنا عنها ،إلى العمق الباطني ،الذي تتجلى عليه أنوار الحضور الإلهي ،ولعل هذا ما أدركه كبار المتصوفة ،وأرادوا لنا التسامي ببلوغه ،عبر عاطفة الانجذاب التي نستشعرها في أنفسنا ،حين نجدها مشدودة بقوة نحو هؤلاء الكبار ،في محاولة للاقتداء بهم ،والسعي إلى تمثّل قيمهم الخالدة ،وعمليا على أرض الواقع ،تريد لتلك القيم الروحية ألاّ تبقى في ذاتها مجرّدة ،كامنة في زاوية من زوايا التاريخ، بل تريد لها أن تنتقل من الفردانية إلى الكلية والشمول ،ومن الإنسان إلى الإنسانية ،وأخير من الإنسانية إلى الروحانية الإلهية ،حينئذ فقط سيكون الحديث عن القيم الكونية التي تستوعب الخليقة ،بل والكون بأسره .

وعلى هذا ،يتجلى التصوف التام من خلال " مشاركة فردية في الفعل الإلهي ،أي أنه تماس معه ،وجهد من أجل تمديده ،وهو أيضا جزئي للإنسانية ،وجهد مركّز من أجل تغييرها ،لأن غاية التصوف –بحسب برجسون- اتصال بالجهد المبدع الخالق الذي ينجلي عن الحياة ،ومن ثمة إتحاد جزئي به ،وهذا الجهد من الله ،إن لم يكن هو الله ذاته ،والصوفي الكبير هو ذلك الذي يتخطى الحدود التي رسمتها للنوع البشري ماديته ،ويكمل بهذا الفعل الله "[36] ،ومن هنا ،كان التصوف تجربة روحية ، يتجاوز فيها المتصوف حدود الطبيعة المادية التي من شأنها أن تجعل الإنسان مقيّدا أسيرا في دائرة ضيقة مغلقة على ذاتها ،ويكون تجاوزه سموا وعلاء باتجاه الحضرة الإلهية ،على أن ذلك لا ينبغي أن يبقى في إطار الوجد و التأمل ،بل ينبغي أن يرتقي دوما إلى مستوى الفعل ،لأن الوجد و التأمل غير كافيين لتعريف التصوف ،فما" يُعرّف التصوف هو الفعل الإلهي المختلف –على مستوى الطبيعة –

[35] البحيري ،خالد ،مفهوم الخلق في فلسفة برجسون ،كلمة للنشر و التوزيع ،تونس ،ط1، 2016، ص 343.

[36] المرجع نفسه، ص364.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

عن الفعل الإنساني ،يستطيع بواسطته بعض الأشخاص ،تجاوز طبيعتهم الخاصة من أجل صنع تاريخ أو مصير أخلاقي للإنسانية " [37].

وهكذا يكون المتصوف الحقيقي ،مدفوعا بتيار جارف نحو العمل والفعل ،لأن الغاية ليست الوصول الفردي وحسب ، بل هي تبليغ وإيصال روح تلك النفحات الصوفية إلى أكبر عدد من الناس ،بل إلى الإنسانية جمعاء ،ويكون " ظهور كل نفس من هذه النفوس خلقا لنوع جديد ،مؤلّف من فرد واحد ،والوثبة الحيوية حقّقت في فرد معيّن من حين إلى حين ،نتيجة ما كان لها أن تتمّ لمجموع الإنسانية دفعة واحدة "[38]،ومن هنا ،يكمن سرّ النفحة الصوفية وقوتها ،إنها تعبير عن تيار حيوي روحي ،انبثق عن الدفعة الكبرى للحياة ،يقول برجسون " إن المتصوفين الحقيقيين هم الذي يفتحون أنفسهم للموجة التي تجتاحهم ،وهم لثقتهم بأنفسهم ،ولكونهم يتحسّسون في باطنهم شيئا ما خيرا منهم ،رجال عمل عظام ...وهذا الشيء الذي انساب في داخلهم هو تيار هابط يريد أن يعبر فيهم ليكتسح الآخرين ،فحاجتهم إلى أن ينشروا حولهم ما قد هبط إليهم ،هذه الحاجة يحسُّونها وثبة حبّ ،وهو حبّ يطبعه كل منهم بطابع شخصيته ،حبّ يغدو فيهم عاطفة جديدة كل الجدة ،قادرة على أن تهب لحياة البشر رنّه جديدة "[39]،مفادها أن الحياة الحقيقية قوامها دين حركي إنساني ،وروحها تجربة صوفية متعالية ،وقوتها دفعة حيوية ،تفضي إلى الخلق و الإبداع ،فضلا عن كونها تشعّ بالمحبة الكاملة ،التي تجعل كل واحد من هؤلاء " محبوبا لذاته ،فيفتح الآخرون نفوسهم لمحبّة الإنسانية ،به ،ومن أجله ،حبّ قد ينتقل أيضا عن طريق شخص تعلّق بهم ،أو بذكراهم التي لا تزال حية ،فغدت حياته مطابقة لمثالهم "[40] الذي ينبعث من أعماق التاريخ ، كنداء قوي تنجذب النفوس إليه ،وهي تستشعر في ذاتها حرارة وشوقا للولوج إلى ذلك العالم الذي بلغوه ،وإلى تذوق ذلك الوجد الذي وجدوه ،بيد أن ذلك لا ينبغي أن يتوقف عند هذه الحدود التأملية ،بل ينبغي الارتقاء إلى التمثّل العملي الفعلي ،لأن " كل شيئ يظل غامضا إذا نحن اقتصرنا على مجرّد التجليّات ...حتى إذا بحثنا عن الحياة نفسها غدا كل شيئ وضحا "[41]،وضوح الرؤية و الفعل الذي ارتقى من مجرّد حالة إلى فعل وخلق و إبداع .

وإذا كان النداء هو روح الفعل الصوفي ،فإنه يتجاوز مجرد حالة تستجيب أو تنجذب فيها النفس لما هو خارج ذاتها ،إلى حالة من المعايشة الروحانية والباطنية للحضرة الإلهية ،تجعل التجربة الصوفية في ذاتها تجربة شخصية ،يقول برجسون :" إني لأتساءل إذا كان كلام متصوف كبير أو أحد ممّن يحاكونه ،يلقى في نفس أحدنا هذا الصدى ،أَلَيْس معنى ذلك أن فينا شخصية صوفية غافية ،تنتظر من يوقظها من سباتها؟ إن الإنسان في الحالة الأولى يرتبط بما ليس بشخصي ،ويستهدف أن

[37] البحيري ،خالد ،المرجع السابق ،ص 364 ..
[38] برجسون ،هنري ،المصدر السابق ،ص 104.
[39] المصدر نفسه ،ص 108 .
[40] المصدر نفسه و المكان .
[41] المصدر نفسه ،ص 109.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

يندمج به ،أمّا هنا ،فهو يستجيب لنداء شخصية ،قد تكون شخصية من أوحى بالحياة الأخلاقية ،أو شخصية أحد ممن يحاكونه ،أو قد تكون في بعض الظروف شخصيته هو نفسه"[42]،تلك الشخصية الصوفية الكامنة ،طالما انتظرت النداء الصوفي، لتتجلى في عالم الفعل ،الذي هو عالمها الحقيقي ،إنها تأبى إلاّ أن تكون حاملة لقيمة الفعل الذي تنبلج أنواره من الباطن العميق إلى فضاء الوجود الروحاني الفسيح .

إن روحانية النداء في فلسفة برجسون ،تضفي عليه صبغة دينية مسيحية خالصة ،فالنداء في تصوره الصوفي ،يمثل " حدّا فاصلا بين المغلق و المفتوح ،أو بين الساكن و المتحرك ،والنداء هو مدار التغيّر و الاهتداء ،وهو صادر عن فرد ميزته الاتصاف بأوصاف متفرّدة ،أهمها أنه يحيا تجربة الامتلاء بفعل الانفعال مع المبدأ الأعلى ،لذلك فإن هذا النداء لا يتحقق بواسطة الانعدام ،بل بالصيرورة الممتلئة التي تقتضي التغيّر بالقدوة ،وبالدعوة إلى المحبّة ،والمسيح هو الذي تجلّت لديه هذه الأوصاف الكاملة ،والتي تبقى في مقابلها بقية الأوصاف – أوصاف القديسين و الإبطال -جزئية ناقصة ،إذا ما قورنت بما كان عليه المسيح ،وهي للسبب ذاته ،اتخذته على الدوام نبراسا لها ،وأنموذجا للكمال الصوفي الذي عرفته الإنسانية"[43] .

يجسد التصوف المسيحي أنموذج الكمال في الروحانية الصوفية ،والتي يكون المسيح في القلب منها ،ومركزها الذي تدور حوله التجربة برمتها ،و منتهاها الذي إليه تنتهي ،ولأن برجسون يحصر التصوف الحقيقي في التصوف المسيحي ،فإن ذلك مردّه إلى تميّز هذا الأخير بميزات فريدة ،ليست موجودة –بحسبه – في بقية النماذج الأخرى من التصوف التي عرفتها بقية الأديان و النِّحل ،وهي في تصوره العمل ،والخلق، والمحبة .

يراد بالعمل هنا القدرة الروحية الخلاقة التي تتيح للصوفي أن يتخطى " مرحلة التأمل و النشوة ،إلى أبعد من ذلك ،حين يتّحد الصوفي إتحادا تاما ونهائيا بالله ،حينئذ سوف تبذل هذه الشخصيات العظيمة حيويتها الفائضة في إنشاء الأديرة و الجمعيات الدينية "[44] لتتحوّل بذلك أو تقفز من مجرّد حالة وُجْدٍ إلى حالة فعل وعمل وممارسة على أرض الواقع .

أما المحبّة فهي السمة الجوهرية التي تقع في القلب –الصميم- من التجربة الصوفية المسيحية ،بل ويذهب برجسون إلى أبعد مدى حين " يعتقد أن الله محبة ،وأن جوهر الوثبة الحيوية هي المحبة ،ولذلك عندما يتّحد المتصوف المسيحي بالتيار الحيوي الصاعد تتجسّد فيه المحبة ،وتعبّر عن نفسها بمحبّته اللّامتناهية للإنسانية جمعاء ... وإن حب الصوفي للإنسانية و الخليقة جمعاء ،يختلف كليا عن الحب بمعناه العادي الشائع ،لأنه لا ينتج عن ميل في النفس ،ولا عن تصور فكري ،بل إن محبة

[42] برجسون ،هنري ،المصدر السابق ،ص 108.

[43] مجموعة من الأكاديميين العرب ،الفلسفة الغربية المعاصرة –صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج - ،منشورات الاختلاف ،الجزائر ،ط1 ،2013 ،ص 179.

[44] مروان علي حسين ،أمين ،المرجع السابق ،ص ص 215-216.

ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200 المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020

الصوفي مستقلة بذاتها ،ويتحمل في سبيل ذلك جميع التضحيات بروح المحبة الخاصة لِله "[45] ،وهي في تصور برجسون محبة من الله لخلقه ،الذين أحبهم ،فخلقهم ليحبّونه ،ولتكون تلك المحبة ذاتها، هي سرّ الخلق ومنبعه الأصيل ،ومن هنا يأتي الخلق بما هو روح التجربة البرجسونية ،فضلا عن العمل و المحبة ،على أن فكرة الخلق تقترن عند برجسون " اقترانا وثيقا بالمحبة ،لأنه يرى الخلق ناتجا قبل كل شيئ عن انفعالات أو عواطف فائقة للعقل ...تفضي إلى ظهور متصوف عبقري كبير ،قد يحلّ أكبر المشكلات• عن طريق تحقيقه لتحول روحي عميق في قلوب البشر و عقولهم "[46] .

إن التجربة الصوفية هي جوهر التجربة الدينية عند برجسون ،وبما هي كذلك ،فهي المنبع المعين الذي من خلاله ينهل الصوفي طاقاته الخلاقة ،فضلا عن كونها المنعطف الحقيقي للتجربة الثيولوجية التي تمثل ذروة سنام المشروع الروحي الذي جاءت به البرجسونية كبديل روحي بإمكانه التأسيس للحياة الروحية المعاصرة على أسس جديدة ،تستجيب للتطلعات اللانهائية التي تميز بها الإنسان الغربي المعاصر.

خاتمة:

إن الهدف الأسمى الذي تسعى إليه الثيولوجيا البرجسونية هو تحقيق الوثبة على أرض الواقع من خلال الانتقال بالإنسان إلى الإنسانية ،أي من أسر المادة إلى فسحة الروح ،ومن المنغلق الساكن إلى المنفتح الحركي ،ومن الآني المؤقت إلى ديمومة الأبدي، ولهذا يرى برجسون أن النفوس الصوفية وحدها التي تتمكن من إحداث هذه القفزة النوعية على صعيد القيم الإنسانية ،وكأن برجسون أراد للصوفية أن تشعّ على الواقع قيما كلية شاملة تستوعب الإنسانية جمعاء ،ولعل هذا ما يبدو صعب المنال ،حتى أن برجسون نفسه يقول :" قد يبدو لنا من الممكن أن تتطور الإنسانية حتى تغدو مجتمعا واحدا،يشمل كافة البشر ،والواقع أن هذا المجتمع لم يوجد بعد ،ولعلّه لن يوجد "[47] .

لكن روح الأمل التي كانت تحدو برجسون،والنزعة التفاؤلية التي رسمت معالمها الواضحة في تجربته الروحية المتكاملة ،ستفضي به إلى يقينية الحل الثيولوجي ،وكذا إلى قدرته على استيعاب مختلف المشكلات و الأزمات التي لا زالت تهدّد الحياة الإنسانية في حاضرها ،فضلا عن مستقبلها الحضاري ،و الذي سيبقى مجهولا إن لم تتدارك الإنسانية نفسها ،وتعود إلى روحانيتها الأصيلة ،وتلك هي حدود التجربة الثيولوجية، ومن خلالها يطالعنا برجسون بتلك الآفاق الروحية الواعدة ،والتي ستبقى إنسانية في طبيعتها ،وكونية في أهدافها وغاياتها .

P 101.

[45] مروان علي حسين ،أمين ،المرجع السابق ،ص 216.

• عندما يعالج برجسون مشكلات الإنسان الكبرى مثل الحرب و السلم و تكاثر السكان ،يعتقد أن الخلق قد يوفر الحلول الصالحة لهذه المشكلات (أنظر: مروان علي حسين ،أمين ،المرجع السابق ،ص 216.)

[46] مروان علي حسين ،أمين ،المرجع السابق ،ص 216.

[47] برجسون ،هنري ،منبعا الأخلاق و الدين ،المرجع السابق ،ص 104.

المجلد :12 / العدد : 01 / الشهر: جوان / السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

قائمة المصادر والمراجع :

1- المصادر:

أ- باللغة العربية :

1- برجسون ،هنري ،منبعا الدين والأخلاق ،،ترجمة سامي الدروبي ،الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر ،القاهرة ،(د ط) 1971 .

ب- باللغة الفرنسية :

1- Bergson ,Henri ,les deux sources de la morale et de la religion ,p u f ,58eedition,1948,p267.

2- المراجع :

1- ابرهيم مصطفى ،ابرهيم ، نقد المذاهب المعاصرة ،دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ،(د ط) 2015 .

2- البحيري ،خالد ،مفهوم الخلق في فلسفة برجسون ،كلمة للنشر و التوزيع ،تونس ،ط1 ،2016 .

3- بدوي ،عبد الرحمن ،موسوعة الفلسفة ،ج1 ،المؤسسة العربية للدراسات و النشر ،بيروت ،ط1 ، 1984 ،ص 379.

4- صادق جلال ،العظم ،دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة ،جداول للنشر و التوزيع ،بيروت ط1 ،2012.

5- طيرشي ،كمال ،الفلسفة الروحانية عند هنري برجسون ،مجلة تبيين للدراسات الفكرية و الثقافية ،المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ،الدوحة ،العدد 13 ،2015 .

6- عبده ،مصطفى ،فلسفة الأخلاق ،مكتبة مدبولي ،القاهرة ،ط1 ،1999

7- قيس ،أحمد ،فلسفة الدين عند برجسون ،مجلة قضايا إسلامية معاصرة ،مركز دراسات فلسفة الدين ،بغداد ،ع 48/47، 2011

8- كرم ،يوسف ،تاريخ الفلسفة الحديثة ،كلمات عربية للترجمة و النشر ،القاهرة ،(دط) ،2012 .

9- مروان علي حسين ،أمين ،فلسفة الأخلاق عند برجسون ،مجلة كلية الدراسات الإنسانية ،جامعة الكوفة ،بغداد ،العدد 07 ،2017.

10- محمد علي ،أبو ريان ،تاريخ الفكر الفلسفي ،ج4،دار المعرفة العلمية ،القاهرة ،(دط)،1996

11- مجموعة من الأكاديميين العرب ،الفلسفة الغربية المعاصرة –صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج -،منشورات الاختلاف ،الجزائر ،ط1 ،2013 .